جاؤوا للمبيت عنده. هكذا عاش في الثورة واستشهد في سبيلها، فقدم للناس النموذج المفقود في الجمعيات والمؤتمرات والأحزاب.

وهناك مرحلة قصيرة في حياة القسام، قفز فوقها التاريخ المكتوب عنه، بسبب غيابها في الكتابات التأسيسية، وهي عمله كمدرس في مدرسة البرج الإسلامية، منذ تأسيسها عام ١٩٢٢، وحتى توليه الإمامة في جامع الاستقلال، منذ تأسيسه عام ١٩٢٥. وعلى قصرها، فقد كانت هذه المرحلة الأرض ــ الجسر التي ربطت القسام بالجيل الجديد، وبالأوساط الشعبية الفقيرة، وأتاحت له التعرف على أشكال اللعبة السياسية الشرعية في المدينة ورموزها. وبالقدر ذاته من الزمن (٣ سنوات)، اختبر القسام تجربة العمل العلني ١٩٢٨ ــ ١٩٣١، في جمعية الشبان المسلمين؛ وذلك عندما وصلت سياسة المؤتمرات العربية الفلسطينية الى سقفها المسدود في المؤتمر السابع. حينها، وفي ظل الكساد السياسي، «أصبحت جمعيات الشبان المسلمين تستقطب الوطنيين»[١]. ففي الانتخابات التأسيسية عام ١٩٢٨، فاز برئاسة الجمعية: في حيفا الشيخ عزالدين القسام؛ في غزة حمدي الحسيني؛ في نابلس محمد عزة دروزه وفي صفورية الشيخ محمد سعيد عبد المعطي (أبو العبد) وكان «قسامياً»[٢]. ومن بين الهيئة المركزية لحزب الاستقلال (١١ عضواً) الذي تأسس عام ١٩٣٢، شارك سبعة أشخاص في مؤتمر الأندية الإسلامية وجمعيات الشبان المسلمين عام ١٩٢٨ وهم: عوني عبد الهادي (القدس)، عجاج نويهض (القدس)، رشيد الحاج ابراهيم (حيفا)، محمد عزة دروزه (نابلس)، حمدي الحسيني (غزة)، أكرم زعيتر (عكا) وفهمي العبوشي (جنين).

هذا الاندفاع، لم يكن بمقدوره، استناداً الى الأشكال التي اتخذها، أن يؤسس الحركة الوطنية الجذرية البديلة. فالجمعيات، في قانونها، هي أقرب الى النوادي منها الى الهيئات السياسية، عدا عن كونها تحظر النشاط السياسي، وتستهدف ــ بنظر العناصر اليمينية والاصلاحية ــ جذب «الموظفين المسلمين»، اسوة بما فعلته جمعيات الشبان المسيحيين! والغرض الوحيد التي حققته، أنها كانت واجهة غطت على عجز «اللجنة التنفيذية»، ومهدت لميلاد الأحزاب.

وفي مرحلة تأسيس الأحزاب ١٩٣٢ ــ ١٩٣٥، كان الشيخ عزالدين القسام يعطي كل وقته، لتهيئة حركته السرية المسلحة، حتى تتمكن من تفجير الانتفاضة في حيفا وجنين، واعلان الكفاح المسلح ضد الانتداب البريطاني وأداته المحلية الصهيونية. وكان طبيعياً ان يرحب القسام بالاكتشاف المتأخر لحزب «الاستقلال» والذي يرى أن التناقض الرئيسي هو بين الحركة الوطنية والانتداب البريطاني. لأن هذا الاكتشاف قرّب الاستقلاليين من المقولة القسامية في العشرينات: «بريطانيا رأس الداء والبلاء». والثابت تاريخياً، أن حزب الاستقلال ــ باختياره ــ قد حصر نفسه في مهمة فكرية واحدة وهي: توجيه الأنظار ودفع الحركة الوطنية الى الخطر الرئيسي «الانتداب» وليس الى فرعه «الصهيونية»، من خلال البيانات والخطب والمذكرات. ولم يتقدم الحزب خطوة واحدة على أساليب الحركة التقليدية التي سبقته الى العنف الجماهيري، في انتفاضة تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٣. كما لم تسجل تجربته القصيرة أية محاولة لتنظيم الجماهير ودعوتها الى الثورة المسلحة، فقد ظل الحزب يمسك بالنقيضين معاً: اكتشاف الخطر الرئيسي واعتماد